الثقافة الصهيونية: ما هي؟

د. هاني الراهب

قد لا تتيسر لنا فاتحة لهذه المقللة أفضل من سؤال هرتزل العصبي الانكاري: «وما هي الثقافة اليهودية؟» وان نستبدل كلمة (اليهودية) بكلمة (الصهيونية)، يصير للانكار أساس أقوى بكثير من نفاد الصبر عند هرتزل.

الثقافة واحدة من الكلمات الكبيرة. والكلمات الكبيرة غالباً ما تتأبى على التعريف الدقيق. لكننا سنؤكد على اثنين فقط من معانيها المتعددة: الشمولي والضيق؛ الأول، باعتباره مجموعة الخصائص المميزة لأمة من الأمم؛ والثاني باعتباره الجانب الفكري لحضارة أمة من الأمم.

في تقديري أننا لا نستطيع أن نتحدث عن ثقافة صهيونية بالمعنى الأول. فالصهيونية، كحركة سياسية تاريخية، لا تتجاوز المئة عام الا قليلاً. وخلال هذه الفترة لم تتمكن من انشاء خصائص مميزة على النحو الذي نلمسه في الثقافة الهندية أو الفرنسية أو العربية. وبالطبع، فان هذا التوكيد يتضمن نفياً لأن تكون الصهيونية واليهودية مترادفتين في المعنى، ونفياً أيضاً لأن تكون الصهيونية تعبيراً حديثاً عن اليهودية. انها شيء آخر تماماً، رغم اتكائها الشديد اللاحق لتكوينها على معطيات يهودية كثيرة وأساسية.

لكننا نستطيع أن نتحدث الى حد ما عن ثقافة صهيونية بالمعنى الثاني. فرغم أن الصهيونية لم تنشىء حتى الآن ما يمكن أن يسمى حضارة، ورغم انها كوّنت دولة وعجزت عن انشاء أمة، ثمة صعيد فكري بارز المعالم يمكن أن نتتبعه في ما اصطلح على تسميته بالحركة الصهيونية العالمية. والى جانب الجهاز الفكري الذي اصطنعته الصهيونية، ينبغي أن نذكر محاولات الصهيونيين الذين هاجروا إلى فلسطين واستوطنوا فيها أن ينشئوا ثقافة خاصة بهم. وهي محاولات مرت بثلاثةأطوار، وكانت على الدوام متوجهة بالمعطيات النظرية والعملية للفكر الصهيوني.

إن الطبيعة الخاصة بهذا الفكر وتلك المحاولات يمكن أن تستشف من ثلاثة مصادر رئيسية. وغني عن القول إن المصادر الثلاثة هذه تعود إلى بيئة أوروبية صرف، اتسمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسمات جوهرية لعل أهمها سيادة النزعة القومية، وطغيان الطابع الاستعماري لهذه النزعة، وانتشار الفكر الاشتراكي بأشكاله المتعددة، وخاصة الفكر الماركسي الذي ولد من صميم تناقضات الحياة الأوروبية.

الأصول الطبقية

إن أهم ما يميز الفكر الصهيوني هو كونه نتاج الطبقة المتوسطة من يهود أوروبا. ويجمع الكتّاب الاسرائيليون، الذين أرخوا للحركة الصهيونية، على هذه النقطة اجماعاً لا يترك مجالاً للتشكك فيها. فالهجرة الأولى التي بدأت عام ١٨٨٢، والثانية التي بدأت عام ١٩٠٦، والثالثة التي بدأت بعد اعلان وعد بلفور، جاءت بأفواج من اليهود الساخطين على وضعهم الاجتماعي في روسيا ووسط أوروبا، وهم بأغلبية ساحقة ينتمون إلى فئات الطبقة المتوسطة. كما أن هجرات صغيرة أخرى، حوالي أعوام ١٩٢٥، ١٩٣٣، ١٩٣٧ - ١٩٣٩، لم تخرج عن القاعدة وان كانت أعدادها أقل بكثير من أعداد سابقاتها.

هذه الهجرات هي التي رسمت المسار الفكري للصهيونية، وقامت بالمحاولات التي استهدفت خلق ثقافة صهيونية. أما الهجرات التي تلت قيام الدولة الصهيونية، فلم تستطع، رغم عدد أعضائها الضخم، أن تكون شيئاً سوى عنصر متخلف في البنية الأوروبية لهذه الدولة، فهي في معظمها جاءت من بلدان الشرقين الأدنى والأوسط. وإن هذا التناقض النوعي بين هجرات ما قبل قيام الدولة وما بعد قيامها يفسر الانشطار الجوهري المتزايد حدة في البنية الاسرائيلية بين اشكنازيم وسفارديم.

تؤكد المنبت البرجوازي الصغير للصهيونية دراسات قام بها كتّاب يهود لا صهيونيون لطبيعة العلاقة بين اليهود والمجتمعات الأوروبية خلال قرون مضت . ففي العصر الاقطاعي ، كان اليهودي واحداً من مكونات الحياة الاقتصادية الاقطاعية ، كالقن ومالك الأرض . لقد كان هو رأس المال الذي لم يستطع الاقطاع أن يكونه رغم حاجته له . ولأن رأس المال كان بطبيعة النظام الاقطاعي على هامش الحياة الاقتصادية ، ظل اليهودي على هامش الحياة الاجتماعية . لكنه ظل هناك ، ضرورياً ومطلوباً ، ومتعايشاً مع الفئات الاجتماعية الاساسية بطريقة أو بأخرى . لم يفكر ، رغم كل شيء ، بقومية يهودية ، ولا بدولة يهودية ، ولا « بالعودة » الى فلسطين . وقد ظهر أفراد قليلون ، مثل ساباتي زيبي ، دعوا للعودة إلى أرض كنعان ، فأحرقهم اليهود باعتبارهم مسيحيين زائفين .

غير أن هذا التأقلم لاقى ضربة مميتة على يد الرأسمالية ، التي ما ان تكبّدت الحياة الاقتصادية الأوروبية حتى ألغت الدور الاقتصادي الخاص الذي كان اليهودي يقوم به في عصر الاقطاع ، مثلما ألغت أدواراً أخرى كان يقوم بها غير اليهود . وما ان انتصف القرن التاسع عشر حتى كان اليهود ، مثلهم مثل سكان أوروبا ، قد انقسموا إلى طبقات ثلاث : الرأسماليون القدامى الذين دخلوا في تكوين البرجوازية الأوروبية كجزء لا يتجزأ منها ؛ والطبقة الدنيا التي تحولت إلى جزء من البروليتاريا الأوروبية مندمج فيها ؛ أما الطبقة المتوسطة فقد وقعت في أوروبا الشرقية والوسطى بين مطرقة الرأسمالية النامية وسندان بقايا الاقطاع ، ودفعت جزءاً من الثمن الفادح الذي تطلبه الصراع بين الرأسمالية والاقطاع ، وخاصة في روسيا بعد اصلاحات ١٨٦٣ . وهكذا بدأت موجات هجرة كثيفة ، من روسيا بصورة رئيسية ، ومن بولونيا وألمانيا ودول البلقان .

إلى أين توجهت هذه الهجرة ؟ يعطينا الكتاب الاسرائيليون أرقاماً ذات مغزى بهذا الصدد . ففي سبعينات القرن التاسع عشر هاجر ٦٠ ألف يهودي إلى الغرب الأوروبي والأميركي . وفي الثمانينات هاجر ٢٠٠ ألف . وفي التسعينات ٣٠٠ألف. وبين ١٩٠٠ و ١٩١٤ هاجر مليون وخمسمئة ألف إلى أمريكا . بالمقابل ، لم يكن عدد الذين هاجروا إلى فلسطين خلال هذه الفترة يتجاوز الآلاف . وكان العامل النفسي الذي دفع هذه الآلاف القليلة إلى فلسطين أقوى من العامل الاقتصادي . فهؤلاء كانوا يريدون الاحتفاظ بأوروبيتهم ، ولكن بعيداً عن أوروبا وأمريكا . وكان شعورهم أنهم لا يقلون قيمة ولا امكانات عن أوروبيي الطبقة المتوسطة ، وأنهم قادرون على منافسة الأوروبيين والتخلص من اذلالهم بتكوين دولة وأمة . وقد حافظوا باستمرار على طبيعة الطبقة المتوسطة الفكرية ، من انقسامات عقائدية حادة ، وتذبذب جوهري في التفكير ، وتشكيل أحزاب صغيرة لا عد لها ، وطوباوية مضحكة في تصور الانسان والحياة والمستقبل .

ولعل المثال أن يوضح المنشأ الطبقي المتوسط للصهيونية . ففي أوساط الحركة العمالية الثورية في روسيا ترعرع تنظيم للعمال اليهود ، هو البوند ، وواكب العمل السياسي للحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي قاده لينين . كذلك تشكلت في عديد من أنحاء روسيا نوادٍ للصهيونية تدعو للقومية اليهودية واستعمار فلسطين . لكن الحركتين لم تلتقيا قط . فبينما اختار أعضاء البوند الحل الماركسي ، المتمثل في احياء الثقافة اليهودية وعصرنتها في الاطار الشيوعي ، والبقاء ضمن نظام سياسي تعددي اشتراكي ، أصر الصهيونيون على أرض ينشئون فيها دولة وينفصلون بها عن شعوب العالم . وهكذا تحولت جمعية أحباء صهيون ، التي تشكلت من النوادي الصهيونية ، الى حزب سياسي هو الحزب الديمقراطي الاشتراكي العبري ، بويل زيون ، ذي التوجه الماركسي القومي ، بقيادة بن غوريون وبن زفي ، الذي صار فيما بعد حزب العمل الحاكم في اسرائيل .

مؤثرات

طبيعي أن يتعرض فكر الطبقة المتوسطة إلى مؤثرات عديدة ، ومتضاربة أساساً . فهذه الطبقة المخلخلة كبنية تستطيع امتصاص تيارات فكرية متنوعة ، على نحو يلعب فيه الخيال دوراً أكبر بكثير مما يلعبه ادراك الواقع الموضوعي .

ومن المؤكد أن الفكر القومي كان أهم ما تأثر به أحباء صهيون ، ومن بعدهم بويل زيون . أن القرن التاسع عشر هو عصر القومية في أوروبا ، وبتحديد أكبر ، هو عصر القومية الاستعمارية ، التي أرادت تنمية حسّ قومي متضخم لتحتفظ بتفوق اقتصادي وبالسيطرة على أسواق تجارية ومصادر ثابتة للمواد الأولية . وقد يبدو من المفارقة أن يعتنق صهيونيون من الطبقة المتوسطة فكراً قومياً له هذه الصفة ، وهم جماعة لا تملك وسائل انتاج أساساً . غير أن الفكر الصهيوني ، الرجراج بطبيعته ، سرعان ما استدرك هذا الخلل ، وبدلاً من توجه مستحيل نحو السيطرة على الاسواق ومصادر المواد الأولية ، أوغل في توجهه الاستعماري نحو امتلاك الأرض نفسها التي كان رأسماليو أوروبا يكتفون باستعمارها . وكنتيجة لهذه

المعادلة صارت الأرض تشكل العمود الفقري في منظومة الفكر الصهيوني ، واخترعت لأجلها الاساطير وزوّرت الحقائق التاريخية ، كما سنرى بعد قليل .

هذا التوجه الاستعماري جاء نتيجة منطقية لتشرب الرؤية القومية في روسيا القيصرية وألمانيا وفرنسا وانكلترا . اننا هنا أمام ظاهرة تاريخية أكدت على الطابع الغيبي لشخصية الأمة ، على أن الأمة سر من أسرار الطبيعة ، تمتلك روحاً خاصة بها ، وتحمل تفوقها الضمني على بقية الأمم . وهكذا قام المفكرون الصهيونيون بتوكيد مماثل على عزة أمتهم ، وتفرّدها بين الأمم ، على أن لها « روحاً قومية » تماماً كما للروس والبولونيين والالمان وغيرهم . وأضافوا أن الشتات وضياع الأرض هما العاملان الحاسمان في ابطال مفعولها الخلّاق ، وان وضع حدّ للشتات باستعادة الأرض هو وحده الكفيل باستعادة روح الأمة اليهودية وتفعيلها . وكان الطابع الرومنتيكي ، وخاصة في الرومنتيكية الالمانية ، قد جعل من فكرة الأمة كياناً عضوياً ، فوق بشري مفعماً بالغيبية والأصول العرقية الواصلة الى ما قبل التاريخ . وكان لنيتشه أكبر الأثر في صياغة الصهيونيين لفكرتهم عن الأمة .

على أن ثمة فرقاً جوهرياً في الممارسة بين قومية المفكرين الصهيونيين وقومية المفكرين الرأسماليين . فحيث كان المفكرون الرأسماليون يفكرون باسم طبقة تسيطر على مقدرات أمة ، وتستطيع أن تدعي أنها تتكلم باسمها ، كان المفكرون الصهيونيون بعيدين جداً عن هذا الموقع الاجتماعي الاقتصادي الحاسم . كان هؤلاء أقلية ضمن طبقتهم نفسها ، ولم يكن بوسعهم أن يتكلموا حتى باسم هذه الطبقة ، ناهيك بالطبقتين الأخريين ، البرجوازية والعاملة ، اللتين اندمجتا بالبنية الاقتصادية لأمم أوروبا . وبدلاً من أن يدركوا عقم أية محاولة لاجتذاب اليهود الآخرين ، ازدادوا شططاً وتطرفاً في ابراز القومية اليهودية ، وجعلوا من أنفسهم رسلاً لها يحق لهم التكلم باسمها ومطالبة الآخرين بالانضواء تحت لوائها . ان هذه الممارسة ليست بعيدة عن فكر الطبقة المتوسطة ، فهي ، لكي تحتفظ بمصالحها ، تعمد إلى التكلم باسم الأمة كلها ، عن مصير الأمة وقدرها ونضالها ، وضرورة الالتفاف حول قيادتها ، الخ . . وهذا ما يعلنه منشور أصدرته جمعية احباء صهيون ، اذ جاء فيه : « نحن المتعلمين يجب أن نكون الأبطال الذين يدخلون المعركة على رأس شعبهم » .

من جانب آخر ، كان الفكر الأوروبي الاشتراكي مؤثراً لا يقل أهمية عن الفكر القومي ، على الأقل في المرحلة التكوينية فالتأسيسية للحركة الصهيونية . وتلك هي واحدة من أبرز غرابات الفكر الصهيوني . وسنرى بعد قليل كيف اشترع بوروخوف توحيداً فكرياً بين النظرية القومية الأوروبية والاشتراكية . أما الآن فسنشير إلى الأدبيات والمنشورات التي كانت تصدرها النوادي الصهيونية في روسيا وأوروبا الوسطى ، والتي كانت متأثرة تأثراً طاغياً بالفكر الاشتراكي . يقول ديفيد هوروفتز ، الحاكم السابق لمصرف اسرائيل : « في (حركة الشباب الصهيوني العمالي) خلقنا لأنفسنا عالماً مثالياً ، جديداً وحراً ونبيلاً . حلمنا بيوتوبيا ـ وكانت حركة العمل الصهيوني بوابتنا التي قادتنا اليه » . وواضح أن التركيز على « العمالي » و « العمل » في هذه اليوتوبيا ينم عن توجه اشتراكي في الفكر .

ويقول منشور صدر في لفوف عام ١٩٠٤ :

« أيها العمال اليهود في كل البلدان اتحدوا وراء راية بويل زيون . أيها الاخوة والأخوات من الطبقة العاملة ! اننا نرى أمامنا حركتين قويتين عظيمتين : الاشتراكية التي تنشد تحريرنا من العبودية الاقتصادية والسياسية ، والصهيونية التي تنشد تحريرنا من نير الشتات . كلتاهما تؤثران علينا تأثيراً عظيماً . كلتاهما تعداننا بمستقبل مجيد . كلتاهما حيويتان بالنسبة لنا كالحياة نفسها » .

ليس الطابع الاطنابي الاعلاني عصياً على الالتقاط في هذا المنشور . وليست عصية أيضاً محاولة الصهيونيين التماس الدعم من الطبقة العاملة اليهودية ، التي انصرفت عنهم ، كما رأينا . وقد وصل بهم الأمر إلى حد صياغة شعارات سائرة كنوع من غسيل الدماغ . ففي منشور آخر نقرأ ما يلي :

« أيها العمال والعاملات اليهود ، أيها المستغلون ، المضطهدون ، الذين يعيشون بعرق حاجبهم . . لنتوحد ونعلن : يسقط الاندماج ! تسقط الرأسمالية ! تسقط اللاسامية ! لتعش البروليتاريا الدولية ! لتعش الحرية اليهودية ! لتعش الاشتراكية ! لتعش الصهيونية ! » .

وبالطبع تجدر الاشارة هنا إلى الأثر الخاص والعميق الذي تركته الحياة الوطنية الروسية على الحركة الصهيونية . فالمناخ الثوري الجائش في روسيا بين ١٨٨٠ و ١٩٢٠ كان المهد الذي ولدت فيه الصهيونية وترعرعت ، دون أن يكون بالطبع مسؤولاً عنها أو متبنياً لها . فمن روسيا جاء مؤسسو اسرائيل . وفي (منسك) ولدت حركة العمل الصهيوني عام ١٩٠٢ . وعموماً ، فان الصهيونية ، كما يقول كتّاب اسرائيل ، كانت نتاجاً أوروبياً صرفاً ، مثله مثل الشعبية في روسيا والعرقية في ألمانيا .

أسمـــاء

في تاريخ الفكر الصهيوني ، ثمة أسماء صنعته أو بلورته الى حد كبير ، وأعطته زخماً واستمرارية ، وزودت الحركة الصهيونية بالقناع الايديولوجي اللازم لخوض معركتها الاستعمارية . ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء ، ان لم يكن كلهم ، انقلبوا إلى الصهيونية انقلاباً مفاجئاً ، بعد أن كانوا أفراداً مندمجين في مجتمعاتهم الأوروبية . ويتضح من تكرر هذه الظاهرة أن اعتناق الصهيونية من قبلهم كان فعلاً نفسياً ، لا موقفاً فكرياً تاريخياً ، انهم لو صبروا قليلاً لسارت الأمور على ما يرام في المناخ الليبرالي المتزايد قوة واتساعاً في أوروبا وأمريكا ، ان عقيدتهم الجديدة كانت وليدة عوامل شخصية ، وليست سياقاً تاريخياً تفترضه وتنشئه قوانين التاريخ . ولعل أبرز مثال على هؤلاء تيودور هرتزل نفسه ، مؤسس الحركة الصهيونية العالمية . فهذا الصحفي النمساوي المتأنق ، الذي كان يكتب المسرحيات كمواطن نمساوي يزدري اليهودية والتشبث بها ، سرعان ما أصدر كتابه الشهير (الدولة اليهودية) بعد عام من مشاهدته لأحداث قضية دريفوس ، وأسس حركة قومية يهودية ، بعد عام آخر . ولأنه كان الوحيد المتشبع بليبرالية أوروبا الغربية ، كان أبعد الصهيونيين عن فكرة أرض الميعاد والتراث اليهودي . كان يريد مكاناً ، أي مكان ، يقطنه اليهود بعيداً عن اذلال الأوروبيين لهم . إن دوره الفكري ، بعكس دوره السياسي ، ضئيل للغاية ، وقد انحسر نهائياً بعد زمن قصير من وفاته .

أما ليب ليلينبلوم فكان المفكر الذي ألهم المهاجرين من روسيا عام ١٨٨٢ أن يستوطنوا فلسطين . وكان قبل سنوات قد أدار ظهره لليهودية . لكن أحداث ذلك العام غيرت رأيه فجأة وجعلته ينشىء تفكيراً قومياً ذا توجه عملي ، هو الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها .

وكان موزس هس أيضاً يهودياً مندمجاً وألمانياً اشتراكياً من الطبقة المتوسطة . بل ويقال إنه كان يتعاون مع ماركس وانغلز . ورغم أن كتابه (روما وأورشليم) صدر عام ١٨٦٢ ، فلم يلق اهتماماً الا بعد ربع قرن أو يزيد . وقد أضاف هذا الكتاب إلى الفكر الصهيوني مسحة رومنتيكية في دعوته الطوباوية إلى تأسيس دولة يهودية على أساس « خلق عملي » من الحب والطوعية والتعاون المنسجم بين الناس الأحرار . وقد رأى في التاريخ صراعاً بين القوى الغيرية للحب والعدل والقوى الانانية الاضطهادية . ورأى أن على اليهود في دولتهم القومية أن يهيئوا « لسبت التاريخ » الاشتراكي ، الذي سيحررهم والبشرية معهم . وسيكون هذا ممكناً عبر عودة اليهود إلى العمل « المنتج » في الأرض ، ضمن إطار من النظام العادل الخالي من الهرمية الاجتماعية ، والمكون من وحدات تعاونية .

كذلك تحول الى الصهيونية فجأة ليو بنسكر الروسي ، وسرعان ما رأى في اللاسامية داء عضالاً ليس له دواء . وفي كتابه (الانعتاق الذاتي) ، ١٨٨٢ ، دعا بحماسة شديدة الى أن يمتلك اليهود أرضاً خاصة بهم . لم يكن بالنسبة له أين تكون الأرض ، وانما أية أرض يمكنها أن تنقذ اليهود من الانقراض في أوروبا .

على أن أهم مفكر منح للحركة الصهيونية ما تحتاج اليه من صيغ عقائدية ضرورية هو بير بوروخوف ، الذي فصله الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي من عضويته بسبب انحرافاته الصهيونية . لقد أنشأ بوروخوف نظرية تدمج الماركسية الاساسية والصهيونية ، الثورة الاشتراكية والقومية اليهودية . وهذه النظرية هي التي مكنت الصهيونيين من الاعتقاد بأن استعمارهم لفلسطين سيكون تطبيقاً للاشتراكية الماركسية .

لقد رأى بوروخوف أن البؤس اليهودي نتيجة « لسيرورة انتاج » مناوئة لليهود . وهذه فكرة صحيحة ، سوى أنها لم تحدد أن اليهود الذين « ناوأتهم الثورةالصناعية الأوروبية هم فئات من الطبقة المتوسطة فقط ، وليس اليهود قاطبة . وفي كتابه الصغير (المسألة القومية والصراع الطبقي) ، يشير إلى أن اليهود ، لكونهم لا أرض لهم ، قد أخرجوا بالضرورة من ميادين الاقتصاد الأولية ، كالزراعة والتعدين ، ودفعوا إلى الميادين الهامشية ، كالتجارة والصناعة الخفيفة . وهذا صحيح أيضاً ، سوى أنه ينطبق على الطبقات المتوسطة الأوروبية كلها ، وليس فقط على اليهود . وتأتي النقلة الحاسمة في فكر بوروخوف عندما يسقط الطبقة الوسطى نهائياً من حسابه ، ويستبدلها بالبروليتاريا اليهودية ، بأسلوب من الخداع الفكري الذاتي ، فيقول : ان كون البروليتاريا اليهودية غير منتجة جعلها عاجزة عن التجمع كقوة اجتماعية ، فقد ضاعت منها القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي . وواضح أن كلمة (بروليتاريا) مقحمة اقحاماً في هذه العبارة ، وأن القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي ليست أرضاً قومية بحسب الماركسية ، وانما هي الميدان الدولي بأكمله . وتابع بوروخوف تحليله فأكد على ضرورة الاشتراكية العلمية ، التي ستجعل اليهود بشراً منتجين ، ولكن فقط على أرض خاصة بهم .

لم يكن بوروخوف يؤمن بالتراث اليهودي . وكان ينظر إلى

التاريخ نظرة جدلية ، فيرى أن القوى الاجتماعية التي جعلت الحياة مستحيلة بالنسبة لليهود في الشتات هي نفسها القوى الحتمية التي ستخلق منهم بروليتاريا منتجة ، ولكن على أرض فلسطين . وقد اختار فلسطين ليس لأنها أرض الآباء والأجداد ، بل لأنها أرض فقيرة ، لن تهتم بها الرأسمالية الدولية ، ولن تحاول طرد اليهود منها . وقد رأى أن العرب سيرحبون جداً بمجيء اليهود اليها . فالعرب المحرومون في رأيه من شخصية ثقافية واقتصادية خاصة بهم لن يستطيعوا أن يكونوا أمة ـ بعكس اليهود تماماً . ولأنهم ليسوا أمة ، لن يكونوا قادرين على معارضة منظمة لمؤثرات خارجية . كان نوعاً من الحتمية التاريخية في تصوره أن العرب عاجزون عن تنمية قومية خاصة بهم . وما دامت فلسطين في مأمن من خطط الرأسمالية الدولية الشريرة ، فسيندمج العرب في اليهود ويصيرون قومية واحدة .

لقد تلقف الصهيونيون أفكار بوروخوف المتمركسة ، واعتبروها انجيلاً صهيونياً . فلأول مرة يأتيهم مثل هذا التصور الذي يريحهم من الاشكال الجوهري بين ايمانهم بالاشتراكية وضرورة استعمار فلسطين ، ويريحهم من المسؤولية الأخلاقية المترتبة عليهم تجاه العرب . وكان بوروخوف قد رسم خمسة شروط أساسية لنجاح الاستعمار لا تنطبق الا على فلسطين ، هي :

١ ـ يجب ألا يكون في الأرض اقتصاد رأسمالي متطور .

٢ ـ يجب ألا تكون حكومتها في أيدي واحدة من القوى الرئيسية الامبريالية .

٣ ـ يجب أن تكون فيها بدايات جماعة يهودية راغبة في سيرورة التحول الى بروليتاريا .

٤ ـ يجب ألا تكون قريبة جداً من المراكز الرئيسية للرأسمالية العليا .

٥ ـ لا بد للسكان الاصليين من أن يتشابهوا مع اليهود نفسياً وعرقياً بحيث يصيرون ، « تحت ادارة فعالة » ، متكيفين مع القادمين الجدد و « ثقافتهم الروحية الأسمى » .

وفي مكان آخر ، كتب بوروخوف أن « العوام فقط يعتبرون السكان عرباً أو أتراكاً . . وليس لديهم سبب يجعلهم يلاقونه بالعداء فوراً . على العكس ، هم يعتقدون أن الأرض حق لليهود ، وهم أنفسهم يسمونها « أرض اليهود » .

اننا في هذه الأيام نقرأ كثيراً من الكتابات الاسرائيلية التي تؤرخ للحركة الصهيونية ، والتي تزعم أن القادة الصهيونيين أنفسهم لم يكونوا واعين بمشكلة اسمها العرب . ان نظريات بوروخوف هذه ، التي مارست تأثيراً طاغياً على الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٠٦ ، والتي أساساً للنشاط الصهيوني حتى عام ١٩٢٠ ، تنفي نفياً قاطعاً أي جهل أو غياب وعي بالمشكلة العربية .

أسطورتان

هذه المصادر والمؤثرات الفكرية في الحركة الصهيونية سرعان ما تبلورت في أسطورتين قويتين تشكلان الاساس العقائدي للحركة الصهيونية . ونحن نعلم أن كل حركة سياسية تنشىء أساطيرها الخاصة بها لكي تستمد منها مبرر بقائها ووجودها ، ولتبقي معنويات أفرادها عالية وزخمها الخاص مستمراً . ويمكن أن نصنف هذه الأساطير في مجموعتين ، ترتبط الأولى بالأصول ، والثانية بالرسالة .

لقد اعتمد الفكر الصهيوني أسطورة الأصول بسهولة . وانطلاقاً من الفكر القومي الأوروبي ، الذي جعل كل أمة أوروبية كياناً عضوياً مغرقاً في القدم ، صار عمر الأمة اليهودية في نظر المفكرين الصهيونيين يقارب أربعة آلاف عام . فابراهيم الذي هو منشىء الأمة اليهودية ، وجد بحسب مقولاتهم في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد . ولم يكونوا في توكيدهم للهوية القومية بحاجة الا لتحويل التوراة من كتاب ديني إلى كتاب تاريخي ، رغم ما فيه من تزوير وانتحال ومبالغات وكذب ، والايمان بأن ما سجل فيه حقائق تاريخية موثقة لا يأتيها الباطل . وتحولت المشكلة اليهودية ، التي هي نتاج رأسمالية القرن التاسع عشر ، الى مشكلة أزلية ، كونية ، وستظل أبدية ، تعم اليهود كلهم ، وسببها الأولي الوحيد هو الشتات .

لهذه الأسطورة تفرعات وامتدادات كثيرة لا مجال للتطرق اليها هنا . غير أن ثلاث نقاط هامة ترتبط بها لا بد من ذكرها . أولاها اضطرار المفكرين الصهيونيين إلى تبني نظرية مستحيلة في الصفاء العرقي لليهود ، سرعان ما آمنوا ايماناً دينياً ، مغلقاً دون العقل والمحاججة . وبذلك اقترب الفكر الصهيوني من عرقية فاشية سبقت تاريخياً ظهور النازية ، وتفوقت عليها في جيل الصابرا الذي جاء بعد جيل الرواد .

والنقطة الثانية هي العداء المحكم لكل ما هو ديني في تاريخ اليهود ، سواء في التوراة أو التلمود أو الكتابات اليهودية الأخرى . والحقيقة أن العداء الشديد كان متبادلاً بين الصهيونيين والتراثيين الدينيين . فالحاخامون ، الذين حافظوا على التراث اليهودي ، اعتبروا الصهيونية نهاية لليهودية ،

وقاوموها بكل ما يملكون من امكانات . أما الصهيونيون فاعتبروا الانبياء والحكماء في بني اسرائيل حفاري قبور لليهودية « الحقيقية » ، وراحوا يمجدون الملوك الذين « عملوا شراً في عين الرب » . ونظروا الى الرب نفسه كإله للبراكين ، يمشي أمام الجنود في الحرب ويقاتل معهم . ورأوا في يهودي الشتات ما يستدعي اشمئزازهم واحتقارهم لأنفسهم ، وأصروا على اعتبار أنفسهم « عبريين » ، مسترجعين ذكرى القوة الغازية لأرض كنعان التي أسست مملكة بحد السيف ، ووضعت ، في تصورهم ، البذور الأولى للقومية اليهودية . وواضح أن هذا الموقف متأثر بفكر نيتشه أساساً ، وفاغنر إلى حد ما

النقطة الثالثة جديرة باهتمام خاص من المثقفين العرب . وهي أن الصهيونية قديمة قدم اليهودية . ان بعضنا يؤمن بها الى حد ، ويرى فيها تعبيراً تاريخياً عن الشر المتأصل في اليهود . ومثل هذا الموقف ليس بعيداً عن اللاسامية ، كما أنه يغفل حقائق التاريخ التي تثبت أن الصهيونية كفكر وحركة امتداد للفكر الأوروبي الاستعماري . والفكر الصهيوني يرى أنه منذ سقوط أورشليم عام ٧٠ (وكانت في الحقيقة محتلة من قبل الرومان منذ عهد بعيد) ، بدأت الصهيونية ، واستمرت على شكل ايمان لا يتزعزع بالعودة الى كنعان وبناء المعبد من جديد . وليس اختتام الصلاة في عيد الفصح اليهودي بعبارة (العام القادم في أورشليم) الا تعبيراً عن صهيونية تاريخية لم تستطع القوى اللاسامية أن تمحوها . ان العنصر الأسطوري والتلفيقي واضح هنا . وان القفز فوق حقائق التاريخ لا يضلل أحداً الا الذين يقومون به . فقد انتشر اليهود في أرجاء الامبراطورية الرومانية ، وبعد وقت قصير وجدوا وضعهم الاقتصادي فيها مريحاً أكثر بكثير مما كان عليه في فلسطين . لذلك آثروا الشتات على العودة . والحقيقة أنه لم يكن ثمة شيء يعيق عودتهم لو أرادوها ، فهم لم يكونوا واحداً من الهموم الكبيرة للامبراطورية الرومانية ، ولا ذاكرة قوية في تاريخها . لكن وضعهم الاقتصادي الممتاز جعلهم يؤثرون أوطاناً جديدة ويستقرون فيها . وقد ذكرنا الشيء نفسه عن وضعهم الاقتصادي المماثل في عصر الاقطاع الأوروبي . ويهمنا أن نذكر وضعاً ثالثاً فاق كل توقعاتهم في ظل الامبراطورية العربية ، وخاصة في الاندلس حيث كانت لهم حرية ثقافية واجتماعية كاملة جعلت فكرة العودة هذه ضرباً من الجنون .

لكن الصهيونيين رفضوا هذه الوقائع كلها ، واعتمدوا عبارة (العام القادم في أورشليم)، المرتبطة أساساً بتصور ديني عن القيامة ونهاية العالم، كدليل على توق قومي أصيل. كانوا محتاجين إلى أسطورة أصول فصنعوها . ولم يحاولوا قط أن يجيبوا عن الأسئلة التالية التي وضعها اليهودي الماركسي ابرام ليون : لماذا ، خلال ألفي عام بعد سقوط أورشليم ، لم يحاول اليهود العودة إلى تلك البلاد ، ما دامت الصهيونية قديمة كاليهودية ؟ لماذا كان ضرورياً الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر كي يظهر هرتزل ويقنعهم بضرورة العودة ؟ لماذا ليس قبل ذلك أو بعده ؟ لماذا عومل أمثال هرتزل من قبل كمسيحيين زائفين وحرقوا ؟

أما الأسطورة الثانية ، أسطورة الرسالة ، فقد تقدمت من اليهود بصورة طوباوية ليهودي المستقبل . انه اليهودي اللايهودي ، الذي سيعود إلى فطرة الانسان متخلصاً من تشويه الشتات ؛ اليهودي القوي ، المحارب ، الذي يعيش في مجتمع الحرية والعدل والكرامة والأمن ، ويتمتع بصحة نفسية أفضل حتى مما لدى الأمميين، ويجرد أعداءه اللاساميين من أي مسوغ لكراهيته واحتقاره .

لقد استهدفت أسطورة الرسالة أساساً اعلان الحرب على عدوين اعتبرتهما نوعين من المطلق : الشتات واللاسامية . لقد كان الحس اليهودي بالشتات شبه مفقود حتى أواسط القرن التاسع عشر . وفي هذا القرن بالذات أيضاً اتخذ التنافر الديني بين مسيحي ويهودي هوية سياسية ، بسبب انقلاب البنية الاقتصادية الأوروبية . لكن الفكر الصهيوني اعتبر الشتات ظاهرة سياسية بدأت منذ عهد الرومان ، واللاسامية موقفاً أزلياً من الأمميين إزاء اليهود ، وأعلنت أن لديها الحل الأبدي لمشكلة أبدية .

وهكذا تقدمت أسطورة الرسالة من اليهود بدين جديد هو مزيج من عبادة الأرض وعبادة العمل . فأرض اسرائيل هي البيئة الوحيدة في العالم التي يمكن لليهودي فيها أن يكتسب صحة نفسية وانسانية ، خسرها مذ خسر الأرض . كذلك فان هذه الأرض نفسها فقدت صحتها وانتاجيتها مذ تركها اليهودي ، وتحولت إلى صحاري ومستنقعات على أيدي أناس لم يخلقوا لها ولم تخلق لهم . ان صورة الصهيوني الذي يجفف المستنقعات ويخصب الصحاري واحدة من أبرز الصور الثقافية في أذهان المهتمين بها في الغرب . وكان الاصرار على العمل اليدوي في الأرض يقارب حد الهوس عند المهاجرين الأوائل . فالعمل اليدوي هو الذي سيعيد الصحة لكلا الأرض وأصحابها التاريخيين . وهو الذي سيحقق العدل ، إذ يحول دون استغلال العرب استغلالاً رأسمالياً . وهو الذي سيثبت حقهم التاريخي في الأرض بتحويله إلى حق عملي . وكما أشرنا

سابقاً ، كان الصهيونيون في حاجة إلى قوة تكفي للسيطرة على الأرض ، لم يكونوا يملكونها لا في ميدان الصناعة ولا رأس المال ولا التجارة ، على نحو ما توفر للاستعماريين الأوروبيين . وكان لا بد لهذه الحاجة العملية من غطاء عقائدي ، فاخترعوا الغطاء وصنعوا منه أسطورة .

ثلاثة أطوار

مر هذا الفكر الصهيوني والمحاولات المبذولة لخلق ثقافة صهيونية بثلاثة أطوار . ونحن نستمد التواريخ من وقائع الهجرات الصهيونية إلى فلسطين . فبين ١٨٨٢ و ١٩٠٦ كان الطابع الغالب للهجرة الصهيونية استعمارياً بالمعنى التاريخي المتداول . ان أثرياء اليهود من أمثال روتشيلد ، رأوا من الحكمة مطامنة غليان فئات الطبقة المتوسطة من اليهود بارسالهم خارج أوروبا . لذلك دفعوا بسخاء لأجل اقامة مستعمرات صهيونية في فلسطين يهاجر اليها نافدو الصبر من أفراد هذه الطبقة ، فيتوقفون عن مهاجمة الرأسمالية ، وخاصة اليهودية منها . إن مستعمرة ريشون لو زيون أشهر من أن تُعرف . وفي جميع هذه المستعمرات ، كان الصهيونيون يمارسون نشاطاتهم الفكرية كأسياد أوروبيين ، بينما يقوم بالعمل المؤجرون العرب .

هذا الوضع أثار سخطاً شديداً لدى أفراد الهجرة الثانية ، الذين جاءوا بعد فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ . لقد رأوه وضعاً لا صهيونياً ، رأسمالياً وبرجوازياً عفناً ، عاجزاً عن خلق ثقافة صهيونية . ومنذ هذا التاريخ حتى انفجار الثورة الشعبية الفلاحية في فلسطين ضد الانكليز والصهيونيين عام ١٩٣٦ ، تنتقل الحركة الصهيونية إلى الطور الثاني ، الذي هو بحق محاولتها الجدية العملية لخلق ثقافة صهيونية ، ووضع نظرياتها موضع التطبيق . وسرعان ما بدأت حركة نشطة لاقامة تعاونيات زراعية شيوعية ، يعمل سكانها بأيديهم ، وينتجون حاجاتهم كلها دون أن يملكوا شيئاً كأفراد ، وخاصة المال . لقد أرادوا أن يخلقوا اليهودي الجديد ، يحرروه من لا انتاجيته وعبوديته للأمميين ، وان « المجتمع الخيّر العادل والكامل أخلاقياً » . وقد اختاروا عزلة مطلقة عن العالم الخارجي كي ينصرفوا انصرافاً كلياً إلى تكوين شخصيتهم الجديدة .

وكان أبرز انجاز ثقافي حققوه هو احياء اللغة العبرية وجعلها لغة محكية ، وتطويعها ما أمكن لمتطلبات العصر . وكان بن يهودا ، الذي حل في فلسطين عام ١٨٨٢ أول من بدأ هذا الاحياء برفضه التكلم مع زوجه وأمه ووليده الا بالعبرية . وقد تابع صهيونيو الهجرة الثانية محاولته بدأب كامل ، الى أن تمكنوا من خلق جمهرة لا بأس بها من المتكلمين بالعبرية ، وأوصلوا العبرية الى أن تكون لغة الدولة الرسمية عام ١٩٤٨ ، وتقف جنباً إلى جنب مع الانكليزية والروسية .

كذلك حققت محاولة الاستقلال الاقتصادي ضمن التعاونيات الزراعية نمطاً جديداً للحياة ، وخلقت علاقات جديدة بين سكان هذه التعاونيات . ومن البديهي أن يكون الهم الوحيد لديهم تكوين نوع من الاحترام الذاتي ، والشعور بالجدارة ، نابعين من تحول هؤلاء السكان إلى عمال منتجين لا يعتمدون على أحد في كسب عيشهم وتأمين استمرارهم . أما مسألة علاقتهم بالقوى الكبرى وبسكان الأرض الاصليين فقد أبعدت عن أذهانهم . وتعاموا بتتبع أهدافهم عن النظر بجدية إلى تناقضات صميمية في مشروع وجودهم وفي علاقتهم بالعالم ، رغم أن هذه التناقضات كانت ماثلة أمامهم وتذكرهم بنفسها يومياً عبر السلطات التركية التي كانت تعتقل بعضهم ، وعبر الاغارات العربية المخفقة على مستوطناتهم . فالى جانب المعول ، كانت البندقية الجيدة جاهزة باستمرار لاطلاق النار .

إننا في هذه الفترة نلتقي بكلمات عديدة دخلت في كثير من لغات العالم . ثمة بالتحديد الكيبوتز ، والحالوتزيم ، والصابرا . ولعلنا بشيء من التعميم نستطيع القول بأن هذه الكلمات الثلاث تشير إلى كل ما استطاعت الحركة الصهيونية أن تنجزه على الصعيد الثقافي . فالكيبوتز بيئة مختلفة . انه أول تجربة زراعية شيوعية ، وأول محاولة لازالة حس الملكية واحلال المشاعية والعلاقات الحرة محل قوانين المجتمع البرجوازي . ولأن سكان الكيبوتز لم يكونوا يرون سوى أنفسهم ، فقد انصرفوا إلى خلق حياتهم الجديدة بتكريس كامل . هؤلاء السكان هم الحالوتزيم ، أو الرواد ، أبناء الطبقة المتوسطة في أوروبا ، الذين صمموا على خلع أنفسهم من ثقافتهم الأوروبية واليهودية وتطبيق الماركسية على صعيد زراعي . كانوا يستيقظون مع شروق الشمس ، ويقضون سحابة نهارهم في العمل على الأرض . وفي المساء يجتمعون في ندوة بنوها بأنفسهم ليتناقشوا في الماركسية ، والرأسمالية ، والدولة اليهودية ، والعرب الذين سيندمجون فيهم ، ومختلف الموضوعات الدولية الأخرى . وفي ساعة مبكرة يخلدون الى النوم في مهاجع جماعية بنوها أيضاً بأنفسهم ، فمن شاء نام للتو ، ومن شاء مارس الجنس دونما رقابة . وكانت المستوطنة حصناً زراعياً ، قادراً على الدفاع عن نفسه ، له حرسه الليلي ، ومستودع أسلحته وذخيرته . حتى اذا ما هاجم العرب ببواريدهم الصدئة كانوا خاسرين على الدوام .

هؤلاء حاولوا أيضاً خلق جيل نقي تماماً من أية مؤثرات برجوازية مهما كانت ، جيل ينهض وحده كالصبار في الأرض الصحراوية . هذا الجيل هو ما يسمى بالصابرا ، جيل الابناء الذين ولدوا في فلسطين ، التعبير العملي الحي عن اليهودي الجديد المعافى ، اللايهودي ، المستقر في وطن العدل والخير والسلام والحرية ، الذي يرقص (الهورا) ، ويتمتع بخصائص تميزه عن يهودي الشتات وبقية شعوب العالم .

يجب ألا تخدعنا أهمية الكيبوتز وسكانه . فعلى الصعيد الانساني ، كان النتاج معاكساً تماماً للصورة الدعائية التي مهر الاسرائيليون في تقديمها للعالم. إن الجيل اليهودي الجديد ، أو الصابرا ، أكثر مرضاً من أنداده في بلدان أوروبا ، وبالتأكيد أبعد ما يكون عن أية انسانية منشودة . فهذه الطرزانات العبرية ، كما يسميهم آرثر كوستلر ، بدائية الى حد الهمجية ، فاقدة لأيما قدرة على الحب والتعاطف والتواصل الانساني ، مؤمنة بالقوة والعنف ، كارهة لبني البشر قاطبة . والذي يقرأ عن الصابرا في روايات يائيل دايان وغيرها من كتاب اسرائيل يجد نفسه أمام حالات نفسية مَرَضية ، أين منها التبشيرات الأسطورية بالانسان الجديد التي أطلقها الفكر الصهيوني .

لقد كان جيل الصابرا هو المحك والمعيار لنجاح الصهيونية انسانياً . ومما لا جدال فيه أن الفشل قد توج محاولة الصهيونيين لخلق أنماط جديدة لحياة مختلفة تؤسس لثقافة صحية ومعافاة . كذلك فشلت محاولة جعل التعاونيات الزراعية طابعاً قومياً لاسرائيل . فسكان الكيبوتزات لم يتجاوزوا في أفضل الحالات ثمانية بالمئة من البنية الاقتصادية والسكانية لاسرائيل . وفي معظم الحالات ، كانت نسبتهم لا تتجاوز أربعة بالمئة . بمعنى آخر ، ان كثيراً من الدعاية قد دخل في تصورنا لهم ، وان الحقيقة المتعلقة بما نسميه تجاوزاً ثقافة صهيونية ، كانت في مكان آخر ، في الاعداد الغفيرة قياساً من ساكني المدن الذين حافظوا على الطابع الاستعماري التقليدي لمهاجري الموجة الأولى ، والذين شكلوا العمود الفقري لجيش محارب بدأ بن غوريون وبن زفي ينشآنه منذ عام ١٩٠٩ . ان التفكير بانشاء هذا الجيش ، يعني ادراك القادة الصهيونيين أن محاولات خلق ثقافةجديدة ويهودي جديد لم تكن غير تبرير عقائدي واسطورة ضرورية لمعركة استعمارية صرف . وينبغي التوكيد على هذه النقطة ما أمكن . لأن الفكر الصهيوني ما فتىء يؤكد على براءة المهاجرين ، وطوباويتهم ، وانصرافهم إلى الاحلام انصرافاً انساهم الواقع ، لكي يخفف من استنكار المفكرين العادلين للحركة الصهيونية . وان خير دليل على ما نقول هو المآل الذي وصلت اليه محاولات خلق هذه الثقافة وهذا اليهودي الجديد .

صحيح أن الرواد أعطوا صورة ثقافية مختلفة لاسرائيل ، لكنها ظلت صورة دعائية ، وكان الواقع شيئاً آخر . فمنذ ١٩٣٦ راحت اسطورة الرسالة تتلاشى ، وراح بروز الطبيعة الاستعمارية للحركة الصهيونية يطيح بالاحلام المزعومة ويضع حداً لكل ما هو ليس مقاتلاً أو عنصرياً أو أداة بيد الامبريالية العالمية . واذا كانت أسطورة الأصول قد بقيت كحاجز نفسي ضد الانهيار النهائي ، فان وقوع الكيان الصهيوني في القبضة الاقتصادية الامبريالية ـ بعكس ما أراده بوروخوف ـ قد ألغى كل امكان لقيام ثقافة صهيونية متميزة . ان سقوط أسطورة الرسالة ، وخاصة ايجاد حل للمسألة اليهودية ، قد أوصل الاسرائيليين إلى وضع معاكس تماماً . فبينما حلت المسألة اليهودية في جميع أنحاء العالم ، بقيت في اسرائيل . وبقي هذا المجتمع الاسبارطي نموذجاً جديداً للغيتو اليهودي الأوروبي السابق ، مع فرق واحد هو أنه متخم بالسلاح . لقد ابتعدت البنية الاسرائيلية باطراد وبشكل حاسم عن كل ما هو شيوعي واشتراكي ويساري ، وتقلصت فكرياً وثقافياً إى معطيات برجوازية صرف ، وادعاءات تاريخية عجزت عن خلق تيار ثقافي حتى بين الأدباء الاسرائيليين أنفسهم . إن أبرز أدباء اسرائيل اليوم هم الذين يكتبون بضغط شعور طاغ بخطأ تاريخي فادح ، بما يشبه جريمة سيق إلى اقترافها من يسمون الآن اسرائيليين ، بوعي ممزق بأن الدولة الاسرائيلية صنيعة اسرائيلية محض لا تستطيع أن تتنفس الا بمضخة أمريكية . وقد بلغ هذا التحول ذروته باستلام أقصى اليمين الاسرائيلي للسلطة ، ممثلاً بمناحيم بيغن .

إن مناحيم بيغن رمز سياسي ، ورمز ثقافي أيضاً . فهو ، وسلفه جابوتنسكي ، والحركات الارهابية التي أسساها ، كانوا الصوت الصادق الوحيد في الحركة الصهيونية . هؤلاء لم يتستروا بالايديولوجيا ولا بالأساطير على غزوهم لفلسطين . لقد أعلنوا منذ البداية انهم سيأخذونها بالقوة . ولم يكونوا في هذا بعيدين عن بن غوريون وحزبه الاشتراكي . فبن غوريون ، يوم أسس الجيش الصهيوني ، جعل شعاره العبارة التالية : « بالنار والدم سقطت يهوذا ، بالنار والدم ستنهض يهوذا ثانية » . غير أن بن غوريون كان أذكى ، فعرف كيف يزود الحركة الصهيونية بالغطاء الفكري المناسب .